١٤– سورة إبراهيم

نعمة الإيمان ونقمة الكفر.

(١) ما هي أعظم نعم الله عليك؟

كثير من الناس إذا سئل: ما هي أعظم نعم الله عليك؟ سيجيب بالأمور المادية (المال أو البيت أو الأولاد أو الزوجة أو الوظيفة ...)، وإذا سئل بالمقابل عن أعظم مصيبة، سيذكر المشاكل الدنيوية وخسارة المال وضياع التجارة.

فتأتي سورة إبراهيم لتصحّح هذا المفهوم وتوضح أن أعظم نعمة هي نعمة الإيمان، وأن أسوأ مصيبة هي مصيبة الكفر والبعد عن الله تعالى.

وإبراهيم عليه السلام: هو نموذج لإنسان عرف أنَّ نعمة الله هي الإيمان وقدرها وشكرها، ووظف باقي ما أنعم به الله عليه لخدمة الدين.

(٢) نعمة الإيمان ونقمة الكفر:

بَيَّنَ اللهُ في الآية الأولى أنه أنزل الكتب لإرشاد الخلق إلى الإيمان ومنعهم من الكفر والمعصية: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (١).

ثم بَيَّنَ أنه أرسل الرسل إلى أقوامهم، وأرسل كل رسول بلسان قومه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ (٤).

ثم في ٤ آيات تعرض السورة لقصة موسى مع قومه وإخراجهم من الكفر إلى الإيمان، من العبودية إلى الحرية ونعمة الإيمان: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ...﴾ (٥).

ثم تأتي قاعدة عامة ووعد رباني لكل من يشكر نعم الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧)، ومع أن الآية تنطبق على كل نعم الله، لكن ورودها في وسط الآيات التي تتحدث عن نعمة الإيمان، يشير إلى أهمية شكر نعمة الإيمان بشكل خاص، حتى يزيدنا الله من هذه النعمة.

وتبدأ الآيات بعد ذلك في الكلام على المواجهة بين أهل الإيمان وأهل الكفر، ولأن موضوع السورة هو نعمة الإيمان ونقمة الكفر، فإنها لا تتكلم عن كل نبي بمفرده، وهذا يخالف منهج السور السابقة التي كانت تتحدث عن كل نبي مع قومه، أما هذه السورة فإنها تصوّر كل الأنبياء مع كل الكفّار، فتأمل قوله تعالى:

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ (٩)، ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ (١٠)، ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ (١١)، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ﴾ (١٣).

ثم تصل بنا الآيات إلى خطبة إبليس في جهنم، والتي هي بمثابة قمة نقمة الكفر على أصحابه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (٢٢).

تخيّل حسرة من سيسمع هذا الكلام! كيف تستجيب له وهو سيتبرأ منك بهذه الكلمات: ﴿فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢)، فهل هنالك نقمة أشدّ من ذلك؟!

وتصل الآيات إلى آية محورية تشير إلى أن أعظم نعمة هي نعمة الإيمان، يضرب الله لنا فيها مثلًا، ضرب الله هذا المثال لأن الناس يظنون أن نعم الله إنما هي مادية، فيعلمنا الله تعالى بأن كلمة واحدة، نعمة واحدة، هي أعظم من كل النعم المادّية التي يراها الإنسان: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَاء * تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبّهَا وَيَضْرِبُ ٱللهُ ٱلامْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤–٢٥)، فكما أنّ الشجر يثمر ثمارًا طيبة، فكذلك شجرة لا إله إلاّ الله، الراسخة الجذور، العالية الفروع، تثمر أشخاصًا مؤمنين (كأهل القرآن والدعاة إلى الله والإيجابيين وغيرهم من أهل الخير المؤمنين ...)، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، حسنات وأعمالًا صالحة، تبقى لصاحبها صدقة جارية بعد موته.

وبالمقابل فإن كلمة الكفر هشّة، خبيثة، لا جذع لها ولا أصل: ﴿وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلأرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (٢٦).

لا تبدِّل نعمة الله:

وتمضي آيات السورة لتصب في نفس المحور: نعمة الإيمان ونقمة الكفر. فتأتي آية واضحة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ (٢٨).

فماذا يكون جزاؤهم؟ ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ (٢٩).

فإياك أخي المسلم أن تفرط في نعمة الإيمان التي أعطاك الله إياها، وتجحد بها... إياك أن تكون من الذين ﴿وَجَعَلُواْ لله أَندَادًا لّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ...﴾ (٣٠).

فكيف نشكر نعمة الله علينا بالإيمان؟ ﴿قُل لّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلاَةَ وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّا وَعَلاَنِيَةً ...﴾ ٣١)

وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللهِ لاَ تُحْصُوهَا:

وتعدد السورة نماذج أخرى من نعم الله:

﴿ٱللهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاء مَاء ...﴾، و﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ (٣٢).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلانْهَـٰرَ * وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ...﴾ (٣٣).

كل هذه النعم مسخّرة تحت أيدينا، لماذا؟ حتى نعرف الله تعالى ونستشعر فضله ونسلك منهجه.

واللطيف أن الآية (٣٤) تقول: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾، فلم تقل الآية وإن تعدوا نعم الله، بل أننا لو حاولنا أن نعدّد خصائص نعمة واحدة فقط (كنعمة الشمس مثلًا) لما قدرنا على إحصائها، فما بالك بأعظم نعمة؟ نعمة الإيمان بالله ومعرفة منهجه؟

ويأتي ختام السورة: وهو مقارنة بين نموذجين، نموذج لإنسان عاش في نعمة الله (إبراهيم عليه السلام) واستشعر نعمة الإيمان، وبالمقابل نموذج لأشخاص عاشوا بعيدين عن الله وهم ظالمين لأنفسهم ومجتمعاتهم التي حولهم.

فإبراهيم كان شكره واضحًا على النعمة: ﴿ٱلْحَمْدُ لله ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاء﴾ (٣٩)، فكان دعاؤه الرائع ورجاؤه إلى الله أن يتم عليه نعمة الولد بنعمة أعظم منها وأجل: أن يحفظ الله دينه ودين ذريته بالصلاة: ﴿رَبّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلوٰةِ وَمِن ذُرّيَتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء * رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ (٤٠ – ٤١).

وانظر لهذا الحنان من أبينا إبراهيم، وهو يدعو لنا ولأولادنا أن يثبتوا على الصلاة.

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ: وبعد ذلك تختتم السورة بأشد آيات القرآن على الظالمين والبعيدين عن الله ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱللهَ غَٰفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلابْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء * وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُمْ مّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مّن زَوَالٍ﴾ (٤٢-٤٤). هل بعد هذا من نقمة ومهانة وذل؟

إن أعظم نعمة في الوجود هي أن تنجو من هذا الموقف، وأسوأ نقمة في الوجود أن تكون مع من قال الله فيهم: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلاْصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمْ ٱلنَّارُ﴾ (٤٩ – ٥٠).

هذه سورة إبراهيم: سورة نعمة الإيمان ونقمة الكفر، سميت باسم سيدنا إبراهيم كنموذج لمن استشعر نعمة الله الكاملة وأدّى حق شكرها.

من فضلك اقرأ هذه السورة واشكر ربنا على هذه النعمة العظيمة، لأن شكرك له سيرقيك في مراتب الإيمان ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لازِيدَنَّكُمْ﴾ (٧).

(٣) أسماء السورة:

١- الاسم التوقيفي: إبراهيم.

٢- معنى الاسم: هو نبي الله إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام.

٣- سبب التسمية: لتضمنها قصة إسكانه ولده إسماعيل بمكة، وشكره لله على ما أنعم عليه.

٤- أسماء أخرى اجتهادية: لا يعرف لها اسم غيره.

(٤) من خصائص السورة (مما تتميز به السورة عن غيرها):

١-

(٥) جدول السورة:

ترتيبها:	في المصحف: ١٤	في النزول: ٧٢	في الطول: ٣٣		
تصنيفها:	مكية: ٨٦/٧	المثاني: ٣٠/٣			
عدد:	الآيات: ٥٢	الصفحات: ٦,٨	٠,٣٥ جزء	٠,٧ حزب	٢,٧ ربع
موقعها:	بدايتها في الجزء: ١٣		نهايتها في الجزء: ١٣		
فاتحتها:	حروف التهجي: ٢٩/٨	ثلاثة حروف: ١٣/٦	آلر: ٥/٤		

(٦) مقصد السورة: نعمة الإيمان ونقمة الكفر.

(٧) خرائط السورة: ملف الخرائط.

(٨) موضوعات السورة:

١- الحكمة من إنزال القرآن وإرسال الرسل؛ وهي إخراج الناس من الشرك إلى التوحيد (أعظم نعمة) (١-٤).

٢- أربعة حوارات (٥-٢٣).

١) حوار موسى مع قومه، وتذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم، وأن الشكر يزيد النعم (٥-٨).

٢) حوار الأمم السابقة مع رسلهم، وكفرهم بهم، ثم بيان خسارة الكافرين في الآخرة، وتشبيه أعمال الكافرين بالرماد أتت عليه الريح فأضاعته (٩-٢٠).

٣) حوار الضعفاء مع الذين استكبروا في الآخرة (٢١).

٤) حوار إبليس مع اتباعه في النار (خطبة إبليس في النار)، ثم بيان فوز المؤمنين في الآخرة (٢٢-٢٣).

٣- ضرب مثلين (٢٤-٢٧).

١) تشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة (٢٤-٢٥).

٢) تشبيه الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، وأن الله يثبت المؤمنين بكلمة التوحيد في الدنيا وفي القبر وفي الآخرة (٢٦-٢٧).

٤- جزاء من يكفر بنعم الله، ثم عرض مظاهر قدرة الله، ووفرة نعمه (٢٨-٣٤).

٥- عرض نموذجين (٣٥-٥٢).

١) الأول: عرف قدر نعمة الإيمان والتوحيد (قصة ابراهيم) (٣٥-٤١).

٢) الثاني: كفر بالنعمة فكانت نقمة عليه (الكافرين بيوم القيامة) (٤٢-٥٢).

(٩) علمتني سورة إبراهيم:

١- علمتني سورة إبراهيم أن العودة لكتاب الله هو المخرج من الظلمات ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (١).

٢- علمتني سورة إبراهيم أن الهداية لا تحصل إلا بإذن الله ومعونته وتوفيقه ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ (١).

٣- علمتني سورة إبراهيم ألا أقف على أي باب، إنما أطرق باب من بيده مفاتيح كل شيء ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٢).

٤- علمتني سورة إبراهيم أن شكر النعم باللسان والقلب والجوارح سببٌ لزيادتها ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (٧).

٥- علمتني سورة إبراهيم أن كفر النعم سبب زوالها ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧).

٦- علمتني سورة إبراهيم الحياء من الله، فمن تخطئ بحقه لا يرغب في رؤية وجهك، إلا الله، مع أنك شارد عنه بأخطائك إلا أنه يناديك ليصفح عنك ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (١٠).

٧- علمتني سورة إبراهيم أن الأنبياء والرسل بشرٌ من بني آدم، غير أن الله فضلهم بحمل الرسالة واصطفاهم لها من بين بني آدم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (١١).

٨- علمتني سورة إبراهيم أن ألقِ بِحِمْلِي كله على الله ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١).

٩- علمتني سورة إبراهيم أن الشرك يحبط الأعمال؛ فلا يستفيد منها صاحبها يوم القيامة ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ (١٨).

١٠- علمتني سورة إبراهيم أن أراجع أعمالي قبل أن أخسرها يوم القيامة، هل تسرب إليها رياء أو شرك أو بدعة؟ ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ (١٨).

١١- علمتني سورة إبراهيم أن زوالنا جميعًا لا يكلف الله شيئًا ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩).

١٢- علمتني سورة إبراهيم أن أطمئن؛ حقي لنْ يَضيعَ، فغدًا الضَّعيفُ والقَويُّ، الظَّالِمُ والمظلومُ، كلُّهُم سَيقِفونَ أمامَ اللهِ للحِسابِ ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (٢١).

١٣- علمتني سورة إبراهيم ألا أتوقف عن غرس الكلمات الطيبة، فستبقى تؤتي أثرها كل حين، كل حين، يا للبركة ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (٢٥).

١٤- علمتني سورة إبراهيم أن الثبات يكون في الدنيا ويكون في الآخرة؛ فمن ثبَّتَه الله في الدنيا ثبَّتَه الله في الآخرة ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (٢٧).

١٥- علمتني سورة إبراهيم أن الظلم من العبد سبب لإضلال الله تعالى له؛ فوجب الحذر من الظلم ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٧).

١٦- علمتني سورة إبراهيم أن كل شيء حولي مسخر لي ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ (٣٣).

١٧- علمتني سورة إبراهيم أن كفي الممتدّة إلى الله بصدق لن تردّ خائبة ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ (٣٤).

١٨- علمتني سورة إبراهيم أننا فقراء، إلا حينما نسأل الله فنعود أغنياء ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ (٣٤).

١٩- علمتني سورة إبراهيم أن العبد عاجز عن إحصاء نِعم الله، فكيف بمن يزعم أنه شكرها! ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (٣٤).

٢٠- علمتني سورة إبراهيم أن الحفاظ على أمن البلد من أول أمنيات الصالحين والدعاة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ (٣٥).